

سينما الأبطال الخارقين ترسخ الهيمنة الثقافية

الخارقون صاروا أكثر نعومة لإغراء المشاهدين وإقناعهم



تعد الثقافة سلاحًا خطيرًا في أيدي القوى العظمى يمكنها من خلاله فرض هيمنتها على العالم، ومن أكثر الأسلحة الثقافية خطورة نجد سلاح الصورة، الذي تستغله هذه القوى لترميز أنساق ثقافية تدعو إلى الهيمنة والإمبريالية والتوسع الإمبراطوري، خصوصًا بعد اندثار وسائل الاستعمار التقليدي بكافة أشكاله. فالصورة ليست مجرد نسق أيقوني يحمل معنىً وقيمًا جمالية فقط، بل تتعدى وظيفتها الفنية لتتحول إلى نصوص خطافية ذات قيمة تفاعلية مفعمة بالقيم الثقافية والأنساق الخفية التي تهدف إلى توصيل معانٍ أيديولوجية وسياسية واستعمارية في المتلقين.

نرمين صلاح القماح

في شبكة المجتمع العمومي والثقافة العمومية، في صناعة السينما الأميركية يتشكل مفهوم "الهيمنة الثقافية" وتتفكك هيكله الوعي الفردي والجمعي لدى الشعوب، وتصدير صورة الفرد الأميركي القوي ودولة القيم والعدل عبر الصورة. حيث تتحكم وسائل الإعلام البصرية وسينما هوليوود في آراء المشاهدين وعواطفهم، وتدفعهم إلى تبني أفكارها دون وساطة، ويطلق مباشرة عبر الشاشة، لتصل إلى المتلقي بأبهي تقنيات التصوير وأسرعها إنتاجًا وتشكيلًا للوعي، وفي صناعة السينما تنافس كبرى شركات الإنتاج في هوليوود الشركات الاقتصادية الكبرى بأمريكا، بل تسهم هذه الشركات في نمو الاقتصاد مباشرة بما تجود به من إيرادات الضرائب، وتسويق الأفلام بمبالغ مالية ضخمة جدًا.

في البداية كان يتم النظر إلى أفلام "الأبطال الخارقين" بوصفها مغامرة تجارية غير محسوبة، أما الآن فقد تحولت إلى واحدة من أكثر الأفلام شعبية وأجدها على الإطلاق. أفلام "السونير هيروز" أو الأبطال الخارقين لم تساهم في صناعة كثير من نجوم هوليوود فحسب، بل تضمنت رسائل سياسية خفية أيضًا، لا يشعر بها الجمهور إلا أنها تعيد تشكيل كثير من مفاهيمهم الخاصة بالسياسة والأيديولوجيا والحلم الأميركي.

يشير ذلك الغرام الأميركي بـ "السونير هيروز" وتلك الجماهيرية التي تعبر عنها الإيرادات عن حلم يسكن الوجدان الأميركي بعدم وجود حدود للقدرة البشرية، ويستطيع الإنسان الأميركي من خلالها التخفيف من قلقه إزاء المستقبل فيما يتنبه البحث عن عقيدة تنفي الخوف وتُسكن الطمأنينة بدلًا عنه. انتعشت صناعة أفلام الأبطال الخارقين على مدى السنوات العشر الماضية، حيث توسعت تحت مظلة منتجي الروايات المصورة والكوميكس (Marvel و D.C. Comics) واستقطبت تلك الأفلام جماهير أكبر من أي وقت مضى.

على مدى السنوات العشر الماضية، جذبت فكرة "السونير هيروز" الأبطال الخارقين جمهورًا أكبر من البالغين من حقق لها الشهرة والرواج في جميع أنحاء العالم بشكل لا مثيل له. تم تصوير الأبطال الخارقين في الكتب المصورة منذ رحلة سوبر مان في عام 1938، كنتيجة لتوترات المشاركة الأميركية في الحرب العالمية الثانية، وكان النازيون واليابانيون يشكلون تهديدات هائلة، هذه التهديدات فرضت على المجتمع ظهور مصطلح القوة الخارج عن المألوف، هذه الحاجة إلى قوى شاملة ولدت أبطالًا مثل سوبر مان.

بعد ذلك شهدت شعبية تلك القصص تقلبت كثيرة على مدى القرن الماضي، وصدر أول فيلم عن البطل الخارق "سوبر مان" عام 1978، في أعقاب حرب فيتنام وفضيحة ووترجيت الأشهر في تاريخ الولايات المتحدة التي أطاحت بالرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون ودفعته للاستقالة عام 1974.

ناقش الفيلم بحرية مساوئ عصره، يجسد البطل الخارق المهاجر "المنقذ" الذي يمثل قيمًا كانت تدافع أمريكا عنها قديمًا وهي العدالة والحقيقة. عبر "سوبر



أبطال جدد يحققون الهيمنة الثقافية

بطلات جميلة وأفكار ملغومة

إنشاؤه وكتابه ليأسر عقول الجماهير بقضايا أميركا المعاصرة، بينما يتبنى لورانس ماسلون (Laurence Maslon) في كتابه "Superheroes: A Culture of Capes Comic Book" وجهة نظر مختلفة بتأكيد على أن الموجة الحديثة من شعبية الأبطال الخارقين تطوي على عامل لم يسبق له مثيل في ثقافة الكتاب الهزلي ألا وهو تطوير تكنولوجيا صناعة الأفلام الناقلة لها، من خلال استحضار الشخصيات الورقية المرسومة إلى شاشة السينما بمساعدة تقنيات الصورة ثلاثية الأبعاد. وهو ما أضاف سببًا جديدًا لشعبية الأبطال الخارقين.

في عام 2008 ظهرت سلسلة أفلام السونير هيروز "الرجل الحديدي" (Iron Man)، هذه السلسلة التي قامت في البداية على فكرة حرب أميركا ضد الإرهاب، فبعد هزيمة توني ستارك على يد مجموعة من الإرهابيين، عاد من جديد بزى "Iron man" ليقتحم درسا شديداً، في إشارة إلى قدرة أميركا على هزيمة الإرهاب إذا قامت بالجهد الكافي. يحكي الفيلم عن تحول بليونير من شخصية أنانية إلى بطل يسعى إلى السلام، وذلك بعد أن تم اختطافه بواسطة جماعة إرهابية وتمكنه من صنع سلاح عبارة عن بذلة حديدية متطورة جدًا.

أبطال من النساء

ننتقل بعد ذلك إلى نموذج للمرأة الخارقة، كان يحمل في طياته العديد من العديد من الرسائل والقيم الأخلاقية. هذا النموذج هو "كابتن مارفيل" (Captain Marvel) والذي ظهر على خلفية أحداث هزت المجتمع الأميركي عامه، وهوليوود خاصة، في أكتوبر 2017 تم الكشف عن مجموعة من الانتهاكات الجنسية بحق عدد كبير من نجومات هوليوود على يد المنتج الأميركي هارفي واينستين والتي انتهت بمقوله أمام القضاء الأميركي وإعلان إفلاس شركته وطرحه للبيع.

هذه الانتهاكات أسست لظهور حركة نسائية لمواجهة ظاهرة الخرش مثل حركتي "مي تو" و"تايمز أب" اللتين شكلتا جماعتي ضغط للمطالبة بمساواة في الأجور وتمكينهم في صناعة السينما بشكل أكبر.

سقوط هارفي المدوي كان له توابع في هوليوود، فزاد عدد البطولات النسائية والمخرجات بشكل ملحوظ، بالإضافة إلى الإعلان عن مشاريع سينمائية مستقبلية من بطولة وإخراج عناصر نسائية. هذه الأحداث كانت مقدمة لظهور فيلم "كابتن مارفيل" (Captain Marvel)، والذي يمكن إدراجه تحت تصنيف "الأفلام النسوية" (Feminist movies)؛ لأنه يقدم أول قصة أصلية لبطل سوبر هيروز تقوم ببطولته أنثى في تاريخ أفلام "مارفيل".

فيما يخص قضية "المتحولين" التي ترمز إلى حركة الحقوق المدنية للأميركيين، حيث جسدت "ماجنيستو" مالكوم إكس، أما "البروفيسور إكس" فرمز لشخصية مارتن لوثر كينج، فقد عاش كل من مالكوم إكس ومارتن لوثر كينج، كان كل واحد منهما خطيبا ملهما لا تنقصه الشجاعة، ولا الحجة ولا الفصاحة، كانا متقاربين في السن، ويحفهما اتباع كثر، وقد اغتيل في النهاية في فترة متقاربة.

السينما الأميركية تفرض مفهوم "الهيمنة الثقافية" وتميكل الوعي الفردي والجمعي لدى الشعوب الأخرى عبر الصورة

خلال العقد الماضي، ازدادت شعبية الأبطال الخارقين مرة أخرى، مع إصدارات جديدة لشخصيات جديدة تحمل أهدافا سياسية جديدة تتواءم مع طبيعة المرحلة السياسية والاجتماعية التي تمر بها الولايات المتحدة الأميركية، وساعد في ذلك أيضا ظهور تكنولوجيا السينما مثل تقنية (CGI - Computer-generated Imagery) الصور الحاسوبية ثلاثية الأبعاد المستخدمة لصنع مشاهد وعوالم افتراضية ومؤثرات خاصة بالأفلام والمسلسلات، تلك التقنية التي ظهرت في أواخر القرن العشرين.

في كتابه "الحرب والسياسة والأبطال الخارقون: الأخلاق والدعاية في القصص المصورة والأفلام" (Politics, War and Superheroes: Ethics and Propaganda in Comics and Film) ليحلل مارك دي باولو (Marc DiPaolo) العديد من الأبطال الخارقين في السياقات الاجتماعية والسياسية، محاولاً الخروج باستنتاج مفاده أن الأبطال الخارقين هم نتاج رأي شعبي تم ستيقنات القرن العشرين (1968).

أصدرت مارفيل للقصص المصورة قصص سلسلة "ستان لي" و"جك كيربي" سلسلة الأبطال الخارقين "إكس مان" (X Men) وصدر العدد الأول منها في 1963. قصة "إكس مان" حول مجموعة من الأبطال البشريين الذين لهم قوى خارقة بخلاف باقي البشر. يمكن القول إن سلسلة "إكس مان" بُنيت باكملها على التوتر العرقي، إذ تجسد السلسلة بطلين خارقين يؤمن كلاهما بقيم مختلفة تمامًا عن الآخر

الشخصية على أنه يتيم ترعاه عمته ماي وعمه بن في مدينة نيويورك، بلده عكسبوت تعرض للإشعاع وتم تعديله جينياً فيمنحه قوة خارقة وخفة في الحركة، والقدرة على التمسك بالسطح وحاسة قوية لاستشعار الخطر مما يتيح له محاربه خصومه. "الرجل العنكبوت" كان يعبر في تلك الفترة عن عصر الحرب الباردة وأن القوة النووية يمكن أن تكون مخيفة أو تكون خيره اعتماداً على الطريقة التي يختارها المرء في استخدامها.

الجدير بالذكر أن ذات الشخصية "الرجل العنكبوت" صدر لها إصدار جديد عام 2002 في أعقاب هجمات 11/9 من سبتمبر 2001، والتي استهدفت مركز التجارة العالمي، وتضمن الفيلم كثيراً من التعديلات قبل طرحه لتقديم العزاء لأهل الضحايا، إذ تم حذف جميع صور برج التجارة خلال التصوير. كما أضاف المخرج مشهداً جديداً لتكريم الضحايا، يظهر فيه شخصيات تساعد "سبايدرمان" ويهاجمون الشرير "جولين" قائلين "إذا عبثت مع واحد منا، أنت تعيث معنا كلنا" في إشارة لضحايا مدينة نيويورك.

تماماً استخدم الأميركيون أبطال القصص المصورة للتصدي للنزاعات الدولية في الحرب الباردة، ظهر أبطال خارقون آخرون لمعالجة المعارك التي حدثت في وقت واحد داخل الولايات المتحدة والتي عرفت وقتها بحركة الحقوق المدنية الأميركية (تروثسيل)، وهي حركة استمرت لعقود بهدف ضمان الحقوق القانونية للأميركيين الإفارقة التي تحفظ عليها أميركيون آخرون. تلك الحركة التي برزت في عصر إعادة الإعمار أواخر القرن التاسع عشر، وكان هدف الحركة إنهاء الفصل والتمييز العنصري القانوني في الولايات المتحدة، وحصلت الحركة باستخدام الحملات اللاعنافية الكبرى في نهاية المطاف على اعتراف حديث في القانون الفيدرالي والحماية الفيدرالية لجميع الأميركيين، انتهت الحركة في ستينات القرن العشرين (1968).

أصدرت مارفيل للقصص المصورة قصص سلسلة "ستان لي" و"جك كيربي" سلسلة الأبطال الخارقين "إكس مان" (X Men) وصدر العدد الأول منها في 1963. قصة "إكس مان" حول مجموعة من الأبطال البشريين الذين لهم قوى خارقة بخلاف باقي البشر. يمكن القول إن سلسلة "إكس مان" بُنيت باكملها على التوتر العرقي، إذ تجسد السلسلة بطلين خارقين يؤمن كلاهما بقيم مختلفة تمامًا عن الآخر

مان" عن حلم الشعب الأميركي في منقذ صادق عكس السياسيين المخادعين في هذه الحقبة التاريخية؛ ففي أحد مشاهد الفيلم يقول سوبر مان لحبيبته لويس لين "لن أكذب عليك أبداً، عكس هؤلاء السياسيين".

كابتن أميركا" (Captain America) هو محارب مثالي صنيعة تجربة معملية لإنتاج بطل خارق وطني يضع الآخرين قبل حياته، ورغم أن وجود شخص بهذه المواصفات أمر يصعب تصديقه حالياً، إلا أنه يعكس "الحلم الأميركي" بزمن أكثر بساطة لم تكن فيه اليد العليا للمؤسسات الرأسمالية والأجندات السياسية. وعلى حد قول جاك كيربي صانع شخصية كابتن أميركا "لم تكن في حالة حرب بعد، لكن الجميع كانوا يعلمون أنها قادمة، ولهذا ظهرت شخصية كابتن أميركا؛ أميركا بحاجة إلى مواطن خارق ورمز للحلم الأميركي".

قبل أن تقرر الولايات المتحدة الأميركية لن ستنحاز في الحرب العالمية الثانية، كان "كابتن أميركا" قد قرر بالفعل، إذ امتلات القصص المصورة الخاصة به في أول عدد بمغامراته ضد الزعيم النازي الألماني أدولف هتلر ذاته.

الخارقون الجدد

الفترة الزمنية التالية التي أحدثت طفرة كبيرة في أفلام "السونير هيروز" واجهت فيها أميركا خطرًا خارجيًا جديدًا يتمثل في الاتحاد السوفييتي. الصراع الأيديولوجي وسباق التسلح النووي الذي اندلع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي السابق خلال فترة الحرب الباردة من فترة الأربعينات حتى أوائل التسعينات ولد خوفاً على مستوى أميركا من الأسلحة النووية. خلال هذه الفترة، ظهرت النديبة بين القوتين العظميين خلال التحالفات العسكرية والدعاية وتطوير الأسلحة والتقدم الصناعي وتطوير التكنولوجيا والسباق الفضائي.

ولأن الأبطال الخارقين في كل فترة زمنية يعكسون قضايا عصرهم، ولدت الحرب الباردة عدداً من شخصيات السونير هيروز كانت قضيتهم التي كافحوا من أجلها هي الطاقة الذرية مثال على ذلك "The Fantastic Four" التي ظهرت كقصة مصورة في نوفمبر 1961، و"Spider-Man" وقد اكتسبت شخصيات "The Fantastic Four" قدراتها بعد التعرض لإشعاع كوني في مهمة في الفضاء، وعند العودة إلى الأرض بقدرات جديدة كالتمدد، والاختفاء والتوهج والتدمير تعرض هؤلاء السونير هيروز إلى التجهز والعزلة الاجتماعية كنتيجة لتحولهم، وبعد التدريب يتعلمون كيف يخفون قدراتهم لحماية المجتمع. بالفشل وفي أول صور لشخصية (Spider Man) "الرجل العنكبوت" والتي ظهرت للمرة الأولى في الكتاب الهزلي للرسوم المتحركة "Amazing Fantasy" العدد الخامس عشر (أغسطس 1962) في العصر الفضائي للروايات المصورة، قام كل من ستان لي وستيف ديتكو بتصوير